ما بين السطور...

قصاصة ورق...

في نهاية شهر ديسمبر وفي مدينة موسكو الروسية، المغطاة بالثلج والصقيع المُمَزق للجسد يجعل الجو العام كئيب و مثخن بالوحدة و الإنعزالية، وعلى قارعة الطريق في وسط المدينة العظيمة يجلس طفل صغير في الثامنة من عمره. ذلك الطفل هو ميكايل رومانوف، أشقر الشعر وعينان زرقاوتين باهتة من الفقر والجوع، يتلحف من البرد بقطعة قماش أكل الزمان عليها وشرب، متمزقة من طول المدة التي كانت معه.

قام ميكايل من مكانه لتفحص إحدى القمامات المرمية في الأزقة الضيقة لهذه المدينة المشعة بنورها المزيف، فـ ميكايل لم يعرف والديه أبداً، لقد ولد على قارعة الطريق و ترك ليموت و لكن القدر وقف له بالمرصاد و آواه قِس لكنيسة قريبة من مكان ميلاده. وفيما كان ميكايل ينظر لما حوله من بقايا طعام يمكن أن يجده، لم يجد سوى كتاب ممزق الغلاف، أخذه ميكايل يتفحصه لعله يصلح ليشعل النار به إن أمكن ليتدفئ به من شدة البرد وما إذا لم يكن ممتلئ بالماء من هطول المطر والثلج عليه طوال هذه المدة التي مكثها في هذا الزقاق الضيق النتن الرائحة.

توقف ميكايل وهو يتعجب من الكتاب: كتاب؟ فيما قد يفيدني في هذا الوقت العصيب وشدة جوعي التي قتلتني.

أخذ ميكايل الكتاب من الأرض وبدأ يتفحصه بعيني فقير، ولكن نظراته كانت تتسع مع كل قلبه لأرواق هذا الكتاب الذي ما لبث حتى أجلس ميكايل داخل ذلك الزقاق والبدء بقرائته دون توقف أو تفكير بوضعه الجائع لعدة أيام. لكن صفحات الكتاب ما لبثت حتى أشبعت جوع ميكايل الذي أخذ ينغمس في صفحات كتابه الجديد، ومع كل صفحة يقلبها يكتشف شيئاً جديداً في نفسه و وضعه بشكل عام، لقد كان الكتاب يتكلم عن المجاعة الإنسانية وكيف يمكن لنا بإشباعها بالقراءة.

فتحدث الكتاب قائلاً: لقد أشبعت القراءة شعوب كانت تئن من المجاعة البدنية وليست النفسية.

إلتفت ميكايل لمصدر الصوت وهو يشكك بوضعه ما إذا كان ما سمعه حقيقة أم خيالاً، وفيما هو في خضم بحثه حدثه الكتاب مرة أخرى قائلاً: أنا هنا، لا حاجها للبحث، أنا أمامك، تفقد يديك.

حرك ميكايل رأسه بإتجاه الكتاب بكل هدوء وخوف، سائلاً: كيف لك بمخاطبتي؟ كيف لك برؤيتي؟

فأخبره الكتاب قائلاً: أنا أرى ما ترى و أتحدث كيفما تتحدث، لكن معلوماتي أكبر منك.

ابتسم ميكايل وأخيراً وجد شخصاً يؤنسه في وحدته، في وحشته من هذه الدنيا التي أثقلت كاهله منذ الصغر، قرب ميكايل وجهه للكتاب قائلاً: أيستطيع أحداً سماعنا ونحن نتحدث سوياً؟

فأجابه الكتاب قائلاً: لا، أنت فقط من يستطيع أن يسمعني، وكل من لمس صفحاتي يستطيع ذلك.

دارت فكرة برأس ميكايل فقال: إذا كان كذلك، سوف أصحبك في رحلة لم تشهدها من قبل، وسوف أريك أكثر مما لديك في صفحات كتابك المتواضع.

قام ميكايل من مكانه وبدأ يتجول في أرجاء المدينة يتفرج على مناطق الفقراء والمساكين، ينظر إلي حالة الوضع بشكلها الحقيقي وكيف أصبحت بعد الإنهيار الشيوعي والذي يعتبر ميكايل صغيراً جداً لمعرفته أو معاصرته لهذه الحقبة من الزمن. وبعد تجواله في المنطقة حتى بزغ ضوء الصبح قال ميكايل للكتاب: والآن هل رأيت ما الذي يجري هنا وما الذي يحصل من أشياء تتعدى صفحات كتابك الممزق.

سكت الكتاب لبرهة من الزمن ولكنه أجابه قائلاً: إنك محق، فأنا لا أستطيع أن أجمع كل شيء بداخلي ولكن يمكنني تعديل بعض المواضيع بداخلي، سوف أقوم بذلك الآن.

قام الكتاب بقلب صفحاته من البداية حتى النهاية وبين كل فينة وأخرى، يقف قليلاً و تتحرك الورقة بشكل عشوائي كأنها تمسح و تعاد كتابتها من جديد. وبعد فترة ليست بالطويلة توقف الكتاب عن العمل الذي كان يقوم به، لقد إنتهى من إعادة كتابة معلوماته الجديدة وفق ما رآه مع ميكايل. إنه نصر لِـ ميكايل على الكتاب ولكنه أيضاً إثباتاً بأن الإنسان متطور و يتغير مع تغير الأوضاع الموجودة وليس كالكتاب جامد.

قلب الكتاب أوراقه قائلاً: هيا إقراء من جديد حتى تشبع شهيتك المفتوحة للقراءة.

ابتسم ميكايل وبدأ يقلب صفحات الكتاب والذي تغير من قديم إلى جديد ببضعة لحظات، لقد أصبح الكتاب جديد بعيني ميكايل وهو يقرأه من جديد، كأنه قد تعرف على صديق جديد في هذه المدينة الموحشة بقسوتها.

وبعد عدة صفحات، تحدث الكتاب قائلاً: والآن كيف تجدني يا صديقي؟ هل أشبعت جوعك أم مازلت جائعاً؟

لمس ميكايل طرف الورقة وهو يضحك بشكل خفيف وكأنه يؤنس نفسه بهذا الكتاب الذي يمازحه و يثقفه ولكنه لم يقدر أن يشبعه بدنياً كما قال سابقاً. فقال ميكايل: نعم، لقد أشبعتني نفسياً و عقلياً ولكنك لم تشبعني بدنياً، فكيف لك بعمل ذلك لي...فأنت لست من الأشياء التي تؤكل حتى آكلك، لست سوا مجرد مجموعة من قصاصات الأوراق.

غضب الكتاب وأغلق نفسه من دون إكتراث لما يحصل لإصبع ميكايل حيث جرحه بحدة صفحاته وأسال دمه على الأرض، ثم قال الكتاب: أنت مثل من قبلك، لا تعي المهم في الوضوع، لقد أصبحت مادياً كغيرك من البشر، لقد إعتقدُ بأنك شخص مختلف عنهم، فلذلك حدثتك.

قام ميكايل ونظر إلى الكتاب الذي بيده ونظر للأفق حيث كان يقف على جسر فوق النهر وقال للكتاب: أعتقد بأنك أخذت وقتك في العيش على هذه الأرض، جاء وقت نهايتك للأبد.

فأرجع ميكايل ذراعه للوراء لقذفه لأبعد مكان ممكن في هذا النهر الكبير، وفيما هو يقوم بذلك قال الكتاب: أرجوك لا ترمني في النهر، سأكون كتاباً آخر إن أردت، أي كتاب تتمناه سأكون هو، أرجوك لا ترمني.

فأجابنه ميكايل قائلاً: لقد إنتهى وقتك، لا فائدة من المجادلة معك...فرماه ميكايل في النهر ورآه حتى غرق لأسفل القاع...ثم قال ميكايل: إنك مجرد قصاصة ورق ليس إلا.

قصاصة ورق...31/مارس/2012 – الرياض، العربية السعودية.